

* * *

السَّيِّدَةُ زَيْنَبَ

رَضِيَ اللّٰهُ عَنها

نجلاء شوقى حسن

(٣)

السَّيِّدةُ زَينَب

صاحبةُ السِّيرَةِ العَطِرة

هى زَهرَةٌ من بَيتٍ كلُّه رَياحينُ وزُهورٌ عطَّرتِ الدُّنيا كُلَّها . إنَّها السَّيِّدَةُ زَينَبُ بنتُ الإمامِ علىِّ ابنِ أبى طالِب ـ كرَّمَ اللَّه وَجهَه ـ الفِدائىِّ البَطل ، وابنِ عمِّ رَسولِ اللَّه ـ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ـ كما أنَّها ابنَةُ السَّيِّدةِ فاطِمةَ الزَّهراء ، بنتِ رَسولِ اللَّه ـ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ـ سيِّدَةِ نِساءِ أهلِ الجَنَّة ، وأشبَهِ النَّاسِ بأبيها المُصطَفى ـ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ـ كما أنَّها شَقيقَةُ

الحَسنِ والحُسَين ـ رَضِيَ اللّه عَنهُما ـ .

* * *

وُلدتْ ـ رَضِيَ اللّه عَنها ـ فى السَّنةِ الخَامِسَةِ للهِجرَةِ النَّبويَّةِ المشرَّفَة ، بعدَ ميلادِ أخيها الحُسَينِ بعامَين ، وشَهِدتْ من حَياةِ جَدِّها المصطَفَى ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ فى صِباها ، خمسَ سَنَواتٍ كانَ الرَّسول ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ خِلالَها يَشمَلُها برِعايَتِه وحُبِّه وحَنانِه ، حتّى تَشبَّعتْ منذُ نُعومَةِ أظْفارِها بأخْلاقِ النُّبوَّة ، ونورِ الحِكمَة ، ومَكارِمِ الأخْلاقِ وفَضائِلِها .

وقد شاءَتْ إرادَةُ اللّهِ أن تَنشَأَ زَينَب ـ رضِيَ اللّه عَنها ـ فِي بَيتٍ يتحلّى بالأخلاقِ الحَميدَة والتّضحيَةِ والفِداءِ والبُطولَة ، فوَرِثَت عن أبيها

عليِّ بنِ أبى طالِب ، الفَصاحَةَ والبَيان ، حتَّى إنّها عندَما كانت تَتكلّم ، يشعر سامعُها أنَّ أميرَ المؤمنينَ عليًّا هو الّذى يتكلّم . وكذلِكَ أخذتْ عن أُمِّها فاطِمةَ الزَّهراءِ العَفافَ والتُّقَى ، والطَّهارَةَ والهُدَى ، ومَكارمَ الأَخلاق .

* * *

ولم يكنْ ما تَعرَّضتْ له السَّيِّدةُ زَينب ـ رضِيَ اللّه عنها ـ من أحْداثِ الدّهرِ بالأمرِ الهَيِّن .. فقد فقدَتْ جَدَّها العَظيم ـ صلَواتُ اللّهِ عَليه ـ وهى بنتُ خَمسِ سَنَوات ، وفقدتْ أُمَّها الزَّهراءَ بعدَه بشُهورٍ قَليلَة ، لا تُجاوز السِّتَّةَ أشْهُر .

فأُلقِيَ على كاهِلِها وهى صَبِيَّةٌ صَغيرَة ، عِبءُ إدارةِ بَيتِ أبيها ، ورِعايَةِ شُئونِ إخوَتِها .

وكانتْ على عِلمٍ وفِقهٍ في الدّين ، ورِثتهُ عن أبيها .

فلما كَبرتْ كانتْ تعقِدُ مَجلِسًا لِلفِقهِ في بَيتِها ، يتردَّدُ عليه نِسوَةُ المَدينة .. فكنَّ يَتعلّمنَ أمورَ دينِهنَّ في مجلِسِ عَقيلةِ آلِ بيتِ رَسولِ اللّه .. حتّى إنَّ المؤرِّخينَ يَصفونَها بأنّها كانتْ داعِيَةً من الطِّرازِ الأوَّل .

وكانتْ زَينبُ ــ رضِيَ اللّه عنها ــ مَشغوفَةً بمُجالَسةِ العُلَماء ، وبحُضورِ حَلقاتِ العِلم .. تتعلّمُ وتُعلّم .

* * *

وكانتْ قد تَزوّجت من ابنِ عَمِّها عبدِ اللّه بنِ

جَعفرِ بن أبى طالب ، حيث كـانَ مَضـرِبَ المثَلِ فى الجودِ والحِلمِ والكَرم .. وكـانتْ فـى حَياتِها الزَّوجِيَّة ، سـعيدَةً هانِئـة ، ووَفَّرت لزَوجِها كـلَّ سُبُلِ الرّاحة ، وأَنجَبتْ له عَليًّـا ، وعَونـا ويُدعـى بالأكْبَر ، وعبّاسا ، ومحمَّدًا ، وأمَّ كُلثوم .

* * *

وقد وصفَ الـرُّواةُ زَينـب ، بأَنها كـانتْ من أجمَلِ نِساءِ الأرض ، وأنَّ لها من أدَبِهـا وأَخلاقِهـا لِسانَ صدقٍ يرفَعُها إلى قِمَّةِ المَجد .

ومرَّتِ الأيّام ، وقُتِلَ الخَليفَةُ الثّالثُ عُثمانُ بـنُ عفّـان ، وبـايعَ المُسـلِمونَ الإمـامَ علـىَّ بنَ أبـى طـالِبٍ خَليفَـةً لهـم .. وانتقـلَ مقـرُّ الخِلافَـةِ مـن المدينَةِ إلى الكوفَةِ بالعِراق .. ولم يَشأ الإمامُ علـىٌّ

أن يَترُكَ أحدًا من أُسرَتِهِ بالمدينة .. بـل صَحِبَهـم جَميعًا مَعه ، إلى حيث يُديرُ شئونَ المسـلِمينَ فى مقرِّ خِلافَتِهِ بالعِراق ..

* * *

وعاشتْ السَّيِّدَةُ زينَبُ فـى كَنَفِ والِدِهـا مـع زَوجِهِا وأولادِها .. حتَّى شبَّ الخِلافُ بينَ الإمامِ علىٍّ ومُعاويَةَ بنِ أبى سُفيان .. وشَهِدتْ تَفاصيلَ ما حدث وتَجرَّعتْ مَرارَتَـه .. ونُكِبـتْ بأحداثِـهِ الجِسامِ الّتى بـدأتْ بمَقتَـلِ والِدِهـا علـى يَدِ ابـنِ مُلجَم ، عام ٤٠ هجرية .. حيث استُشهد أبوها الإمامُ علـىٌّ بـن أبـى طـالِب ، وهـو خَليفَـةُ المسلِمين ، إثرَ طعنَةٍ قاتِلَةٍ من مـارِقٍ خـارجٍ علـى

الدّين .

ثمَّ توالَتْ عليها الأحداثُ بعدَ وفاةِ أخيها الإمامِ الحَسنِ مَسموماً على يدِ زَوجَتِهِ الخائِنَةِ المَخدوعَة ..

ثم مُنيتْ بعدَ ذلك فى العاشِرِ من المُحَرَّمِ سنة ٦١ هجرية ، الموافقِ ١٠ أكتوبر عام ٦٨٠ ميلادية ، باستِشهادِ الإمامِ الحُسَين ، ومَعه الرِّجالِ الصَّناديدِ من أهلِها وذوى قُرباها ـ ومنهم وَلَداها ـ أمامَ عَينَيْها عَطشَى لا يَجدونَ الماء ، بعدَ أن خذلَهم أهلُ الكوفَةِ بالعِراقِ وتفرَّقوا عنهم .

* * *

ومن فَصاحَتِها أَنَّها مرَّت على أَخيها الحُسينِ وهو مَقتولٌ فى كَربَلاءَ على أيدى أعدائِه ، فانْتابَها الحُزنُ والجَزعُ والألم ، وقالت مُخاطِبةً أهلَ الكوفَةِ الّذينَ خَدعوا الحُسينَ وغَرَّروا به :

يا أهلَ الكوفةِ .. أتبكون ؟ فلا سَكنَتِ العَبرة ، ولا هَدأتِ الرَّنّة . إنّما مَثَلُكم مَثَلُ التى نَقَضتْ غَزلَها من بعدِ قُوَّةٍ أنكاثًا .. تَتَّخذونَ أيمانَكم دَخلاً بينَكم ، ألا ساءَ ما تَزِرون .

أَتعجبونَ لو أمطرتِ السَّماءُ دما ؟ ألا ساءَ ما سوَّلت لكم أنفُسُكم .. إنَّ سَخَطَ اللّهِ عَليكم ، وفى العَذاب أنتُم خالِدون .

* * *

بهذِهِ البَلاغَةِ وجَّهت السَّيِّدةُ زَينبُ بنتُ الإمامِ عليّ ، اللّومَ والتّوبيخَ إلى أهلِ الكوفةِ بالعِراق ، الّذين تَخَلّوا عن نُصرةِ سيِّدِ الشُّهداء الحُسينِ بنِ علِيّ ، وأسْلموهُ لأعْدائِه وتفرَّقوا عنه . وما تبِعَ ذلك من مِحَنٍ حاقتْ بِها من هُجومِ أعداءِ أَهلِها على رَحلِها ، وسَلبِهم مَتاعَها ، وإهانَتِهم لها ونِساءِ أسْرَتِها وصِبيانِهم ، وسَوقِهِم جَميعًا أسْرَى وسَبايا من بَلدٍ إلى بَلد ، بغَير وازِعٍ من ضَميرٍ ، أو نَظرٍ إلى نَسبِهِم الشَّريف .

* * *

وقد عُرِفتْ سيِّدَتُنا « السَّيِّدةُ زَينَب » ـ رَضِيَ اللّه عَنها ـ ولُقّبتْ ببَطلةِ كَربَلاء ، على

ما أظْهرَتْه من بُطولةٍ تَفوق بطولَةَ الرِّجال ، وبما أظْهرَتْه من شَجاعَةٍ نادِرَة ، اعترَفَ بها طَرَفا القِتالِ من الأعْداءِ والأنصارِ على السَّواء ، فقد كانتْ تَسهرُ على حِراسَةِ العَتاد ، وتُمرِّضُ المرضَى وتُسعِفُ الجَرحى .. وتُضمِّدُ جِراحَهم ، وتَسقي العَطشى ، وتَستثيرُ المجاهِدين ، وتُشجِّعُهم غيرَ مُبالِيَةٍ بما يَلحقُها من آلامِ الجوعِ والعَطش ، وتوقُّعِ السّوءِ والإيذاءِ من الأعداء .

* * *

وبعد مَوقعَةِ كَربَلاء ، وما حدثَ لأهلِ البيتِ على يد قائدِ جَيشِ النِّفاقِ بالعِراقِ عمرَ بنِ سَعد ، والقَضاءِ على أهلِها وأعوانِهم ، وإحراقِ

بُيوتِهم ، قَرَّرتِ السَّيِّدةُ زَينب ـ رَضِىَ اللّه عنها ـ الخُروجَ من العِراق . ولم تَجدْ أمامَها إلاّ كِنانَةَ اللّهِ فى أرضِه « مِصر » .

* * *

وصلتْ أخبارُ ركبِ أحفادِ رَسولِ اللّه إلى أهلِ مِصر .. فخرجَ إليْها مَسلَمةُ بنُ مَخلَدٍ الأنْصارِىُّ فى مَوكِبٍ حافِلٍ من عُلماءِ مِصرَ وأشْرافِها ، لاسْتقبالِ أبطالِ كَربَلاء .. حتّى إذْ ما وصلَ الرّكبُ إلى مَشارِفِ القاهِرَةِ فى أوّلِ شَعبانَ عام ٦١ هجرية ، وظهرَ نور مَوكِبِ أحفادِ رَسولِ اللّه ، خرجَ أهلُها عن بَكرَةِ أبيهم ، ليَنالوا شرفَ اسْتِقبالِهم واسْتِضافَتِهم ..

* * *

اِحتَفَى أهلُ الكِنانَةِ وواليها بآلِ البَيتِ احْتِفالاً يَليقُ بهم .. وأقسَمَ الوالى أن يجْعَلَ من قَصرِهِ مقرًّا لإقامَتِهم .. وفى ضِيافَةِ مَسلمةَ بنِ مَخلَد ، عاشَتِ السَّيدَةُ زَينَب ـ رضىَ اللّٰه عنها ـــ عامًا وشُهورًا تتمتّعُ باحْتِرام واليها ..

ومرّت الأيّام ، ولم يُمهِلِ القدَرُ حَفيدَةَ رَسولِ اللّٰه طَويلا ، فقد أصابَها مرضٌ لازمَتْ بعدَه الفِراشَ أسابيع ، حتّى وافَتْها المَنِيَّةُ مساءَ الأحَدِ ١٤ من رجَب سنة ٦٢ هجرية .. وكما أحسنَ أهلُ مِصرَ استِقْبالَها ، أحْسَنوا وَداعَها .. ووارَوا جَسدَها الطاهِرَ الشَّريفَ فوقَ أرضِ الكِنانَة .. فى

المكانِ الّذى بُنىَ فيه ضَرِيحُها ولا يزالُ حتّى الآن .

* * *

وفى مُنتصَفِ شهرِ رجَبٍ من كلِّ عام ، يُحيى أهلُ مِصرَ ذِكرى مَولدِ رَيحانَةِ بَيتِ النُّبوَّةَ ، وحفيدَةِ رَسولِ اللَّه ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ السَّيِّدةِ زَينَب ـ رَضِىَ اللّه عنها ـ .

وعن فضلِ أهلِ البَيت ، يقولُ ابنُ عَربىّ : ولقد أوْصانا رَسولُ اللّه ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ بحبِّ عِترَتهِ وأهلِ بَيتِه .. ورُويتْ فى ذلك الأحاديثُ النَّبويَّةُ العَديدة .

فعن أُبَىِّ بنِ كعْبٍ أنّه قال : قالَ رَسولُ اللّه ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ : « أدِّبوا أولادَكم

على ثلاثِ خِصال : حبِّ نَبِيِّكم ، وحبِّ أهلِ بَيتِهِ ، وقِراءَةِ القُرآن ، فإنَّ حَملَةَ القُرآنِ فى ظِلِّ اللّهِ يومَ لا ظِلَّ إلاّ ظِلُّه ، مع أنْبِيائهِ وأصْفِيائه » .